

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

ضرب الشبهات عن بعض آيات متشابهات

لقد استدللنا مسبقاً بمقدمات الحكمة المتوفرة في الفقرات التالية: «آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» و «لهم الأمان و هم مهتدون» و «أولئك الذين هدى الله بهداهم أقذده» و «اجتبيناهم و هدينهم» فإنها آيات محكمات حتماً حيث إنَّه تعالى ضمن مقام تبيان التوسيعة و تبيين الأمان المطلق لهم عن السهو و الخطأ و الوسوسة حتى الدنيوية أيضاً، وبالتالي قد بررَّهنا على «العصمة المطلقة» بحيث قد افتقد الشيطان السلطنة الوسواسية و الإغواءية و السهوية و... تجاه المعصوم تماماً.

على ضوء هات المحكمات، سنفسر أيضاً الآية التالية: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٌّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْبِيَتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيَّاتِهِ وَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكْمٌ حَكِيمٌ» [1] حيث قد اشتَّبه البعض في تفسيرها فحرَّف معناها زاعماً أنَّ الشيطان يتيسَّر له التصرف في أفكار و إرادات المعصومين «بِاللَّفَاءِ الْوَسُوسَاتِ» على نفوسهم عليهم السلام -مستدلاً بفقرة «ألقي الشيطان في أمنيته» -.

بينما الآية الكريمة تحضن ثلاث محتملات كالتالي:

1. ما توهَّمه المتوهَّم -للثُّقَّـ بأنَّ الشيطان سيَتَدَخَّلُ في نفس المعصوم و يستورِّد له الوسوسات الذهنيَّة حاجزاً لإرادته، و لكنَّه تفسير مرفوض ببركة صراحة صراحة نفس الآية «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيَّاتِهِ» حيث يُعدُّ «الفاء للتَّرتِيب بالاتصال» فيُنْتَجُ أنه تعالى سيَمحق إلقاءات الشيطان بسرعة فائقة، فلا يتحقق أيُّ حاجب عن إرادة المعصوم بل ستَرْسَخ آيات الله حتماً، و مما يعزز إجابتنا هي تكملة الآية الماضية: «لَيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَّةُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» [2] فإنها تفسِّر لنا أنَّ أساس عملية «الإلقاء الشيطاني» يصدر لأجل اختبار «مرضى القلوب» كالمنافقين و «قُسَّاءَ الْقُلُوبِ» كالكافار، وبالتالي لا يمسَّ المعصوم إطلاقاً، و لهذا يَسْتَكمل تعالى قائلاً: «وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْحُقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ».

2. وأمَّا المحتمل الثاني فقد انطَرَّ في روح المعاني قائلاً: «وَ الْمَرَادُ بِذَلِكَ (تَمَنَّى) هُنَا عِنْدَ كَثِيرٍ «القراءة».

Ø و الآية مسوقة لتسليمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ بِأَنَّ السَّعْيَ فِي إِبْطَالِ الْآيَاتِ أَمْرٌ مَعْهُودٌ و أَنَّهُ لَسَعْيٌ مَرْدُودٌ، و المعنِّي: و ما أرسلنا من قبلك رسولاً و لانبياً إلا و حاله أنه إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشُّبُّه و التَّخْيلات فيما يقرؤه (المعصوم) على أوليائه ليجادلوه بالباطل و يردو ما جاء به، كما قال تعالى: «وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُونَ إِلَيْ أَوْلَائِنَمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» [3] و قال سبحانه: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَ الْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَيْ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقُوْلُ غُرُورًا» [4] و هذا قولهم (الكافار) عند سماع قراءة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و (آلِهِ و سَلَّمَ) «حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمِيَّةَ» [5] إنه يُحلِّ ذبيح نفسه و يُحرِّم ذبيح الله تعالى، و قولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة و السلام «إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ» [6] إنَّ

عيسى عبد من دون الله تعالى و الملائكة عليهم السلام عبدوا من دون الله تعالى.

Ø «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ» أي فيُبطل ما يلقيه من تلك الشُّبُه و يذهب به بتوفيق النبي صلى الله عليه و آله و سلم لرده أو بإزاله ما يرده.

Ø «تُمْ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» أي يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجه، و ثم للترادي الرتبي فإن الإحكام أعلى رتبة من النسخ.

Ø و صيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجديي، و إظهار (اسم) الجاللة في موقع الإضمار لزيادة التقرير و الإذان بأن الألوهية من موجبات إحكام آياته تعالى الباهرة، و مثل ذلك في زيادة التقرير إظهار «الشيطان».

Ø «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم و من جملته ما يصدر من الشيطان و أوليائه.

Ø «حَكِيمٌ» في كل ما يفعل و من جملته تمكين الشيطان من إلقاء الشبه و أوليائه من المجادلة بها و إبداؤه تعالى ردها، و الإظهار هاهنا لما ذكر أيضاً مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذليلي.

Ø «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ» أي الذي يلقيه، و قيل: إلقاء فتنه أي عذاباً. و في البحر: ابتلاء و اختبار.

Ø «لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أي شك و نفاق و هو المناسب لقوله تعالى في المنافقين «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و تخصيص المرض بالقلب مؤيد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر.

Ø «وَ الْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ» أي الكفار المجاهرين، و قيل: المراد من الأوَّلين عامة الكفار و من الآخرين خواصهم كأبي جهل و النضر و عتبة، و حمل الأولين على الكفار مطلقاً و الآخرين على المنافقين لأنهم أحق بوصف القسوة لعدم انجلاء صدأ قلوبهم بصيق المخالطة للمؤمنين، (فهذا الحمل) ليس بشيء.[7]

و بالتالي، إن المحتمل الثاني - تمنى أيقرأ - رغم ندرته ضمن المستعملات العربية إلا أنه لا يقدح بل يُرافِق عصمة الرسول و يلائم الآيات التي تليها أيضاً و قد اصطفاه الكثير من المفسرين أيضاً، فالحاصل أن تفسيره لآية - ألقى الشيطان في مقرؤئات النبي لحرفي الآخرين - وجيه و مatin.

3. و أما المحتمل الثالث السيد أيضاً، فقد استذكره صاحب الميزان قائلاً: «قوله تعالى: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمُّتِيهِ» إلخ:

Ø التمني: تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكناً أو ممتنعاً كتمني الفقر أن يكون غنياً و من لا ولد له أن يكون ذا ولد، و تمني الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه و أن يكون له جناحان يطير بهما، و (كذا) يسمى صورته الخيالية التي يلتذ بها «أمنية».

Ø والأصل في معناه المبني (على وزن «مشي») بالفتح فالسكنون بمعنى التقدير (و لهذا يطلق على مبني الإنسان نظراً لكتلته كافية التقديرات في داخله).[8]

Ø و قيل (روح المعاني): ربما جاء بمعنى «القراءة و التلاوة» يقال: تمنيت الكتاب أي قرأته.

Ø و الإلقاء في الأمانة (هي) المداخلة فيها بما يُخرجها عن صرائفها و يُفسد أمرها.

Ø و معنى الآية على أول المعنيين: و هو كون التّمني هو تمني القلب (و تقدير ما يُحبّه): و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى و قدّر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدّم دينه و إقبال الناس عليه و إيمانهم به ألقى الشّيطان في أمنيته و داخل فيها بوسوسة الناس (لا المعصوم) و تهيج الظالمين و إغراء المفسدين، فأفسدَ الأمر على ذلك الرّسول أو النبي و أبطلَ سعيه فينسخ الله و يُزيل ما يلقي الشّيطان ثمْ يُحکم الله آياته بإنجاح سعي الرّسول أو النبي و إظهار الحق و الله علیم حکیم.»[9]

و نعمًّا هذا التّفسير حيث قد وجّه إلقاءات الشّيطان إلى قلوب الناس و أفكار المنحرفين فحسب لا إلى المعصوم. و استكمالًا لهذه المقالة، نؤكّد بأنَّ «تمني كلّ شخص بحسبه» حيث إنَّ أُمنيات العامل تتّسجم مع أعماله و تمنيات العالم تتّلخص بدوره و أبحاثه، فليكنْ أُمنيات الرّسول و أهدافه هي «إبلاغ رسالته التي قد استجّمعها لدى قرائته للناس» فوقتئذ سيَنهض الشّيطان و يتلاعب في فهم الناس و تلقّهم عن المعصوم بحيث تَوَسّوس أفكارُهم ليَرْدُعوا تحقّقَ أهداف الرّسول و يُخْرِبُوا نتائج إبلاغه – لا التّصرّف و الوسوسة في نفس المعصوم۔

[1] سورة الحجّ الآية 52.

[2] سورة الحجّ الآية 53.

[3] سورة الأنعام الآية 121.

[4] نفس السّورة الآية 112.

[5] سورة البقرة الآية 173. و سورة النّحل الآية 115.

[6] سورة الأنبياء الآية 98.

[7] آلوسي، روح المعاني، ج 9، ص: 165-166.

[8] وفي هذا النّسق قد شرح بعض اللّغوين «التّمني» بأنه نهاية التّقدير و الفرض، و لهذا يُطلق على الموت «بالمَنِيَّة» لهذه النّكتة الأستاذ المُجلّ.

[9] الميزان في تفسير القرآن، ج 14، ص: 391